مستشرقون ومستغربون

جان بول شارنيي ***ترجمة: ابراهيم سعدي***

كانت مسيرة الاستشراق، بدءا من اللاهوتي المجادل إلى مؤرخ العلوم، مسيرة طويلة. ولا تزال هذه المسيرة تستمر وتتغير. كيف يبدو حاضرها اليوم؟ توترات كثيرة تحتد بين البشر وفي التوجهات. من خلال التصميم، يمكن أن نميز حاليا على نحو عام، حسب تقارب الأجيال – أو بتعبير أدق حسب التوجهات الفكرية – أربعة أنماط من المستشرقين:

-المنتمون للمرحلة الكولونيالية الذين عرفوا الوجهاء والفلاحين التقليديين، وكانوا يوجهون أبحاثهم نحو الماضي الثقافي والتاريخي للإسلام حسب الميادين الكلاسيكية؛

-المختصون في الإسلاميات الذين شاركوا في حروب التحرير، وعاشوا طويلا في البلدان الإسلامية، وهم يسعون إلى إثراء الاستشراق الكلاسيكي من خلال الاستعانة بالمنظور العام الخاص بالعلوم الإنسانية؛

-بعض الباحثين في العلوم الإنسانية الذين عاشوا هم أيضا في أرض العرب، لكن دون أن يخصصوا لها سوى جزء من أعمالهم، معتبرين أن دراسة المجتمعات الإسلامية المعاصرة تقتضي أبعادا أكثر اتساعا: عالمية (من حيث القضايا الاجتماعية، الاقتصادية والإستراتيجية...) وبينية (تعتمد على المقارنة بالأنظمة الحضارية الأخرى وأيضا بمختلف الحضارات التي انتشر فيها الإسلام). كما يقترحون إثراء الميادين الكلاسيكية، على غرار النقد التاريخي، التفسير الفيلولوجي، اللاهوتي، الفلسفي، القانوني، الأدبي،

النحوي، ببعض المناهج المستمدة من الميادين الحديثة: اللسانيات، علم النفس الاجتماعي، الموضوعاتية الأدبية، التاريخ الكمي، البيداغوجيا الحديثة، الاستراتيجية...؛

-جيل المستشرقين الشباب الذين يمثل الاستقلال و التعامل على قدم المساواة مع البلدان المستقلة أمرا بديهيا بالنسبة لهم، وهم لم يعرفوا وضعية الحماية / التشويه التي كانت توفرها الحالة الكولونيالية للأوروبي، ولم يتطرقوا للبلدان العربية – الإسلامية في أبحاثهم إلا في سن الرشد من خلال معرفة مستقاة من الكتب وانطلاقا من مسلمات سياسية، وبالتالي في مرحلة كانوا لا يزالون فيها يجهلون أساليب العيش وأنظمة الأخلاق والتأثير، وكذا المعيشة الاقتصادية والاجتماعية، وغير ذلك، لهذه المجتمعات. وهنا تظهر المشكلة الشائكة المتعلقة بالتعاون.

-

وأخيرا يطرح مشكل الجيل التالي. وهو مشكل يقتضي موازنة بين التوقعات المتعلقة بالمبادلات الاقتصادية والروابط الاجتماعية، ولكن أيضا اتخاذ موقف حول دراسة المجتمعات الإسلامية بصورة عامة واللغة العربية بصورة خاصة، وهي الدراسة التي تطالب بها المجتمعات العربية بدافع الفعالية والشعور بالمساواة والكرامة. هذه الدراسة لا يراها الرأي العام الغربي، من الناحية السوسيولوجية، مفيدة بالمعنى العقلي (بسبب صعوبة هذه اللغة وكونها لا تفضي في الوقت الراهن إلى العلوم الحديثة) وأيضا بالمعنى الاقتصادي (بسبب محدودية التوظيف خارج مجال التعليم). صحيح أنه لن يكون أكثر تعارضا مع الحرية الفردية ومع حقوق الأولياء على أبنائهم أن يقرروا إجبارية دراسة واحدة من أهم لغات العالم الثالث في التعليم الثانوي، مما لو كان الأمر يتعلق بالتاريخ أو الرياضيات. هذا التجديد سيكون مفيدا في السياسة الخارجية وفي التكوين المفاهيمي. غير أنه قد تظهر مقاومة على الصعيد الميكروسوسيولوجي وعلى مستوى السياسة الداخلية على أساس أنه سيتكون لدى العائلات انطباع بأن أبناءهم سيحصدون معارف غير مفيدة.

مهما يكن الأمر، فإن كل دراسة حول مجتمع أجنبي تتطلب أن نقضي فيها شطرا من حياتنا. كيف يتم التعامل الآن مع النظرة الاستشراقية؟

يجري نشاط الباحث في الإسلاميات في وسط شديد التحرك، ليس فقط في حد ذاته، بل أيضا بالقياس إلى ظروف الملاحظة والمتابعة. الاستقبال / الحامي / الحاجب الذي كان يمثله

المجتمع وكذا الإدارة في العهد الكولونيالي قد انقرض الآن، لقد كان يضمن غوصا مباشرا، معاشا، داخل المجتمع موضوع السؤال:إما بحكم المهنة، أو ببساطة لأن المرء كان يعيش هناك... مثل هذا الغوص صار هشا أكثر فأكثر بالنظر إلى أن الوسط المحلي عاد إلى الانغلاق، أو بالنظر، بتعبير أدق، إلى أن الإدارات المتغطرسة ترى غالبا في دراسات الباحثين الأجانب أدوات تمرير أفكار تخريبية أو نقدية. بعد نيلها الاستقلال، باتت بعض المجتمعات تريد لنفسها التعتيم.

صحيح أنه من الطبيعي في بلدان يجري بناؤها، حيث كل جهد له أهميته، أن يتم تحديد التوجه وكذا الموضوعات وتوزع البحوث أو البعثات، بالتنسيق مع السلطات المعنية. في بعض الأحيان لا يكون البحث غير المبرمج مرغوبا فيه، بل هو غير مرغوب فيه دائما. معظم البلدان (بسبب الحرب في الشرق الأوسط ، في الصحراء، وكذا الهجوم على مسجد مكة والثورة الإيرانية...) تعاني فوبيا التجسس الذي ينعكس على مناهج وميادين البحث، بدءا من منع تسجيل الملاحظات المتعلقة بالأعمال المنجزة وكذا أخذها، وصولا إلى منع التقاط الصور بدون رخصة؛ وهو منع مبرر بالمقابل عندما يهدف إلى ضمان حماية ضرورية ذات طبيعة اقتصادية أو عسكرية، أو حين يرمي إلى فرض احترام تقاليد وعادات السكان وعدم تحويلها إلى موضوعات أثنوغرافية أو سياحية.

وعلى العكس من ذلك، فإن للاستقبال اللطيف من طرف زملاء جامعيين أثرا مزدوجا. إنه يمنح الفرصة للإكثار من الاحتكاك بأوساط متنوعة، إنه يسمح بالغوص سريعا في " الأجواء". لكنه يشكل أيضا مصفاة: إذا كانت الاتصالات مع المثقفين تسهل فهم الوسط milieu، فإنها تحدث تشويشا أيضا على أساس أن الباحث الأجنبي يبقى منغمسا في فئته الاجتماعية –الثقافية بلغتها ومفاهيمها وردود أفعالها الدولية.

وهكذا يجد الملاحظ نفسه مدفوعا نحو موقعين متناقضين: إما الدخول في جو احتفائي يبعث على الطمأنينة لكنه يعزل عن الحياة الواقعية وعن المناقشات المثمرة بل وحتى عن الطقس. مما له دلالته بهذا الصدد أن الباحث الزائر يستضاف غالبا في المركبات الكبرى الخاصة بالسياحة والملتقيات، داخل قصور دولية مكيفة الهواء، ذات نوافذ مغلقة بعيدة عن الروائح والضجيج والمناظر، واقعة في معظم الحالات على مبعدة من وسط المدينة، جاعلة من

الصعوبة بمكان تحقيق ذلك المطلب البسيط، ذلك التجوال الضروري، ذلك التشبع البطيء الجمالي والبشري عبر المدن.

هذا الحرمان من الوسط المحلي يتحول، على مستوى إنجاز المهمة، إلى نوع من "التبطين" «une sorte de ouaté» في العلاقات. حفاوة الاستقبال لا تحول دون إحساس الباحث أنه يثير شكوك الإدارة، بأنه يربك ويزعج جريان دروس الطلبة المنشغلين بالامتحانات، مثلا، وهو أمر مفهوم، وكذا بأنه يحل وسط مجموعة من الدسائس والخصومات المهنية والأيديولوجية. استمرار العلاقات المرغوب فيها و المعبر عنه دائما من الطرف الآخر بأدب ولطف والذي لا تخفى أحيانا المصلحة الكامنة وراءه، يضيع غالبا أثناء الطريق بسبب طول المراسلات وتردد الأساتذة المحليين الذين يخشون تهمة ربط علاقات مع الأجانب أكثر مما يجب. صحيح أن المستشرقين المتنفذين يعيدون دائما بجسارة نسج تشابك العلاقات الشخصية والمشتركات السياسية وتوسيع عدد الطلبة الزبائن وتوظيف ثقافة التصورات القديمة المؤسسة على حسن النوايا وتبادل الخدمات التي تحيل إلى الروابط المنسوجة بين الغربيين و"الأهالي" أثناء الحقبة الاستعمارية. كل واحد له شبكاته من العلاقات، أحيانا متعارضة. وهذا دون الحديث عن التواطؤ مع السلطات القائمة المانحة للمهمات والمنظمة للحفلات...البعض منهم ينخرط في الصراعات العربية البينية ويعكس مواقفها في أعماله. وعلى نحو أكثر سذاجة، نجد نوعا من "بني وي وي" مقلوب لدى أولائك الذين يبدون مناصرة غير مشروطة للقضايا العربية. بل إن بعض المستشرقين الشباب الأكثر تحمسا يرون أنه لا يمكن البحث بفعالية دون الانخراط مباشرة في عملية التنمية ودون تبن للطموحات الثورية – وذلك أحيانا على نحو أبعد مما ترغب فيه الحكومات القائمة: مثلا مرحلة " الأقدام الحمراء " في الجزائر.

وإما – وهي الحالة المقابلة – الخضوع لإغراء لعب دور رواد الإثنولوجيا الأوائل، فتظهر حينها مخاطر الاصطدام بتعقيدات السلطات وبتوجس أو احتقار السكان الذين يبقى في نظرهم المسافر الشاب، ولو كان من الهيبي، الممثل الممتاز للحضارة التقنية، المسافر بلا حقائب، الغريب عن المشاكل المحلية، والذي يصدم تعطشه للاحتكاك بسكان لم يمسسها الغرب بعد (يا له من وهم !) بالرغبة في التقدم وتحسين المعيشة.

التطور الاقتصادي وتحولات أنماط المعيشة يضعف خصوصية المجتمعات المستقلة، يغمرها بعلامات جارفة مؤشرة للمجتمعات الصناعية – يا لبيبسي كولا... يضعف كل يوم الأمل في العثور على حقيقة بشرية غير مشوهة تهرب دائما إلى ما أبعد أمام الذين يذهبون للبحث عنها – " مساعدة" البلدان السائرة في طريق النمو، اكتشاف حضارة أخرى – لكن هؤلاء لا يفعلون في الحقيقة غير إعادة إنتاج النظرة الإثنوغرافية القديمة الممقوتة اليوم أشد مقت.

في مجموعها، لا تزال الجماهير الإسلامية ريفية، غير أن عملية التحديث مستها في بعض الجوانب. لا يزال بوسع طرق العيش والجمالية الفولكلورية (بالمعنى النبيل للكلمة) والعلاقات العائلية، والطبخ.. أن تجعل البحوث الإثنولوجية مثمرة ومفيدة. غير أن طرق العيش هذه تسير بسرعة نحو الانتهاء أو على الأقل صارت الآن متداخلة مع ممارسات وأفكار جديدة. وبتعبير آخر، في الوقت الذي يمكن أن تتطور فيه معارف إثنوغرافية، سيتغير موضوع البحث لكي يكون أفضل استجلاء انطلاقا من منظور سوسيولوجي: الأمر واضح بالنسبة لتكوين *المدونة* الاثنولوجية الجاري تشكيلها حاليا بالنسبة لمنطقة القبائل. لكن الأمر سيكون قليل الأهمية باعتبار أنه على السوسيولوجيا والأثنولوجيا أن تتناسقا لتشكيل أنثربولوجيا واسعة: نحن نعرف مثلا كم أن الدراسات الإثنولوجية تثري معرفة بعض القطاعات من المجتمعات الصناعية... لكن على العكس من ذلك، نرى الأثنولوجيا (على الأقل عند بعض أبرز ممثليها: علماء الثقافة الأمريكيون، مدرسة ليفي ستروس الفرنسية، أتباع النظرة الأثنولوجية الاقتصادية الجديدة) تنزع إلى التشكل في نظام معرفي تأويلي، على الأقل في المرحلة الأولى، للمجتمعات المسماة إلى اليوم بدائية. وبالتالي فإن قبيلة ضائعة أو قرية معزولة، لا تحيلان بصورة كلية، بحكم كونهما جزءا، ولو مهمشا، من منظومة حضارية قوية، رهيفة وتاريخية، إلى الدلالية التي توفرها مثل هذه الأثنولوجيا – لكن أيضا دون أن تكون المناهج المعتادة للسوسيولجيا المؤسسة انطلاقا من المجتمعات الصناعية أكثر قابلية للتطبيق عليها.

هذه الوضعية لا تمثل إلا حالة من مشكلة نظرية أعم: تشكيل جهاز أدوات منهجية متعلقة بالمجتمعات الأربع التي يمكن فرزها على مستوى البشرية: المجتمعات التي لا تزال قابلة للتناول على ضوء الخطاب الإثنولوجي الكلاسيكي، المجتمعات التي هي في طور النمو، "مناهضو المجتمعات" «anti-société» الذين يمكن العثور عليهم في كل واحدة من هذه المجتمعات: عناصر تجديدية في المجتمعات المسماة بدائية، عناصر "تخلف" وهم التقليديون

(بالمعنى الأنثربولوجي أو الفكري) في المجتمعات النامية، عناصر احتجاجية أو مهمشة في المجتمعات الصناعية. وظيفة مناهضة للمجتمع تختلف وفق قوة المجتمع المعني، غير أن فهم دلالتها يفترض مقاربة منهجية متناسقة ليس فقط بالقياس إلى ذاتها، بل أيضا بالقياس إلى مجتمعها. ذلك أن المجتمعات العربية – الإسلامية خاضعة لعوامل تجديد، لكن بدرجة متفاوتة في العمق والدمج تبعا للقطاعات والميادين والأوساط، والتي تتراوح بين مجرد إلصاق مؤسسات تحديثية على واقع بعيد عن أن يكون كذلك، وبين المساس بالمناطق الأكثر سرية من التفكير والوجدان. إن الباحثين الجدد الحقيقيين في الإسلاميات هم من أصل إسلامي.

الغالبية العظمى منهم (على نحو مغاير لأسلافهم، من الرحالة الكبار بين المشرق والمغرب) قاموا برحلة واسعة: إلى الغرب سواء كان غرب دوركايم أو ماكس فيبر أو غرب ماركس. النجاحات الأولى صارت الآن واضحة: إن كانت معظم البلدان لا تزال تقدم غير بعض الأفراد اللامعين (دون أن نأخذ بعين الاعتبار الكتلة المونوغرافية المتراكمة بفضل الدراسات الجامعية: المذكرات والرسائل)، هناك أيضا ثلاث "مدارس" على الأقل حققت صدى علميا وشخصية حقيقية: التونسية، اللبنانية والمصرية، فيما الجزائرية والباكستانية تسعيان للحاق بها. غير أن الحياة اليومية صعبة.

السوسيولوجي العربي شاب غالبا. وهو حائز في معظم الحالات على دكتوراه خفيفة (جامعة أو من الدرجة الثالثة)، يجد نفسه مكلفا بمهام تعليمية جامعية شاقة أو إدارة فرق ثقيلة في الميدان. يحصل هكذا بسرعة على نضج، على علم خاص بالسلوك، على عادة التحاور مع سلطات بلاده مما يساعده على اكتساب وزن يفتقر إليه في معظم الحالات السوسيولوجيون الغربيون من نفس الجيل، المسحوقون تحت ثقل التراتبية الجامعية، المتقوقعون على تحرير رسائلهم أو المبعدون نحو جمع المعلومات القاعدية الضرورية لأبحاث " المعلم".

غير أن كون الدول النامية التي تتجاوز – روحا إن لم يكن نصا – حرمة واستقلالية الجامعة، وذلك باسم ضرورات الوحدة الوطنية، إلى جانب الاحتجاجات الطلابية، أمر يجعل الجامعة العربية خاضعة لتوترات اجتماعية ونفسية تضعف غالبا قدرة هذه الجامعة على التحرك وأيضا جاهزيتها الذهنية. وإلى جانب مطلب اعتناق المذهب الرسمي، يظهر عائق جوهري لنشاط الباحث العربي بالنظر إلى أن البحث المعمق في البلدان السائرة في طريق النمو يصطدم

بقلة الموارد المادية وأيضا بقلة النخب، إلى جانب انكباب هذه البلدان على مهام، إن لم تكن عاجلة، إلا أنه يؤمل أن تأتي بثمارها في الأمد القصير. السوسيولوجي العربي كثيرا ما يكلف بإجراء تحقيقات تمهيدا لتطبيق هذه السياسة أو تلك. والمشكل أنه، سواء في العربية أو الفرنسية، كلمة بحث تعني في آن واحد إجراء علميا و تحقيقا بوليسيا... من هنا الإغراء بالتكيف مع الواقع والاستسلام له وحتى التورط السياسي، أو اللجوء إلى المقاربات العامة essai أو إلى الأدب أو الخيار السياسي لخوض المعركة أو الهجرة: العودة إلى الغرب، هروب الأدمغة...

من هنا جاء تهرب بعض الطلبة من المناهج، و اللجوء إلى التفسيرات من النوع الشفوي والشمولي بحجة مفادها أن التحليل النظري العام، أو البحث المتقد على غرار ما نجده عند ماسينيون، وهو تجربة معيشة لا يمكن تعويضها، تسعى وراء حقيقة ساطعة أكثر عمقا، يمثل، بعيدا عن التقسيمات "العلمية" التي تفرز أيديولجيتها الخاصة المشوهة والمضيقة، خير إدراك للواقع العربي... صحيح أن هذه المناهج المتواضعة –دراسات فقه اللغة، علم الاجتماع الأمبريقي، البنيوية المقارنة...– لا يمكنها أن تقدم صورة وافية عن الديناميكية العميقة للمجتمعات العربية الإسلامية. لكن اللجوء إلى المناهج، وهي ضرورية للاستجلاء الأولي للواقع الاجتماعي، يتلاشى تحت تأثير خطابات من النمط الماركسي المعادي للإمبريالية أو الشرعي المتقيد بحرفية النص. وهي خطابات سهلة الممارسة بالقياس إلى الإبستمولوجيا المتقشفة أو الجمع الشاق للوثائق أو الإحصائيات... بعض المثقفين العرب (هشام جعيط) ينددون بهذا الاستهلاك السلبي للأديولوجيات الغربية أو الماركسية، مواصلين برصانة نقدهم الذاتي.

لهذه الأسباب كلها، يعاني السوسيولوجي العربي أحيانا نوعا من عدم التواصل مع أساتذته وزملائه الغربيين الذين ينزعون في معظم الأحيان إلى الحكم عليه على ضوء معايير خاصة بمجتمعاتهم، وهو أمر غير علمي بتاتا بالمعنى السوسيولوجي. بيد أن العلاقات الشخصية لا تتبع فورا التغيرات السياسية، وهذا النوع من عقدة أوديب التي يحملها بعض المثقفين إزاء الثقافة القديمة المهيمنة (تمثلها ثم التنكر لها ثم أخذ مكانها) يتم تحويلها أحيانا نحو " الأستاذ" الذي يستمر النظر إليه كـــ" الأب" الفكري – مع التبعات المادية التي تلي ذلك: دعوات، الرغبة في الانضمام إلى النخبة، وإلى اكتساب سمعتهم ونفوذهم، دون البحث عما إذا لم يكن يوجد أعضاء في الجيل الجديد من يكون أفيد لهم فكريا.

هذا الانعدام في التطابق على مستوى السن/ الوظيفة بين السوسيولوجيين العرب والأساتذة الغربيين يحدث في التوازن بين الطرفين مراجعات دقيقة، تبدو أنها إسقاطات للشعور بعدم التطابقات بين حضارة غالبة وحضارة مغلوبة.

لقد أحدث الحضور الاستعماري صدمات في الإدراك العربي. هذا الاعتقاد بالتفاوت الثقافي المحسوس به كشيء حقيقي، كان يثير الخوف أو الرغبة في تمثل هذه الثقافة. لقد سمح الاستقلال السياسي للعرب الإفلات من الصدمات السابقة بمنحهم إمكانية اختيار (على الأقل على مدى معين) الوظيفة التي يريدون منحها للثقافة الأجنبية. هذه لم تعد كلا bloc، بل صارت أداة. فهم واستخدام الغرب بدأ في أغلب الحالات من خلال عناصره الأكثر ظهورا، يعني من خلال بنياته الفوقية: الأيدلوجيات، المؤسسات الحكومية أو الإدارية، وكذا القوانين الاقتصادية. لكن عدم توافق هذه العناصر مع الواقع العربي نجمت عنه إرادة تنظيم الذات وصياغتها وفق بنيات متماشية مع الواقع المحلي: من هنا الشكل السياسي العربي والاشتراكية الموجهة.

ومع ذلك فإنه يحبذ، تفاديا لأي نزعة تمركز إثني، ومن أجل فهم أحسن لحضارتهم نفسها، ألا يأتي الطلبة العرب إلى البلدان المصنعة فقط بغرض الحصول على معارف " تقنية" في الفيزياء أو السوسيولوجيا، وعلى نحو أكثر ابتذالا، لمتابعة دروس المستشرقين: يعني من أجل تفقه المحاولات المنجزة من طرف الغرب بخصوص استجلاء كينونتهم. وفي المقابل، سيكون مهما جدا أن يظهر بالتدريج "مستغربون" يضطلعون، في الاتجاه المعاكس، بدور الوسيط بين الجماعات البشرية، بين الثقافات، الذي سيكفله المستقبل، إننا لنرجو ذلك، للمفكرين ذوي النيات الحسنة. بذلك تنشأ مساواة حقيقية وينمو تكامل مثمر بين الباحثين من مختلف البلدان من أجل أن يشرحوا لشعوبهم المعنية الوجه الحقيقي للآخر وتعميق معرفتهم في آن واحد بمجتمعاتهم نفسها.

ينبغي البدء بنقد الطريقة التي يدرك بها الشرقيون الغرب. الحقيقة أن الأوهام المتبادلة، الغربية حول الشرق، والشرقية حول الغرب، تتحدد على مستويين متباينين. الأول يحيل إلى نزعة الرحيلévasion، يتأسس على تصورات وهمية، وعلى تسلية أدبية، وعلى سوسيولجيا خيالية؛ هذا **الآخر** الموجود بقوة في الأذهان لا يتطابق مع الواقع: إنه حلم أو كابوس واع بدرجة تزيد أو تقل. المستوى الثاني يتمثل في التعايش والمعرفة، لكنه، وقبل حتى أن ينحرف سياسيا أو أيديولوجيا، يصطدم بصعوبة شرح **الآخر** وفقا **للأنا** .

وبالموازاة مع ذلك، يتعين على الاستشراق مراجعة مسلماته فيما يخص موضوعه: أن يدرك أن المجتمعات العربية – الإسلامية هي مجتمعات حية، قادرة على التفكير، بالمعنى المزدوج للكلمة، في ذاتها وفي الآخرين. فيما يخص نفسه، يتعين على الإستشراق أن يسعى أولا إلى أن يكون مجموعة من التقنيات والملاحظات دائما عميقة، دون تشويه لكن دون محاباة أيضا، قصد تقديم أجل خدمة: تلك التي تتمثل في وصف ما هو واقعي. حينذاك يحدث التواصل حينذاك ينكشف وهم الاستشراق.

جان بول شارنيي: اهتم بالقانون الفرنسي والإسلامي قبل أن يتحول إلى الدراسات السوسيولوجية، ومنها إلى البحث المتعدد الاختصاصات: التاريخ الفرنسي، المجتمعات العربية المعاصرة، وتطور المذاهب. شغل منصب مدير الدراسات الإستراتيجية والصراعات في جامعة السروبون.